

الفردانية والانتماء القبلي

في أزمنة غابرة، حيث لم تكن دولا مدنية قائمة، كانت القبيلة هي الملاذ، والحصن الذي يمنح الفرد الدفء والرعاية، ويؤمن له الحماية المادية والمعنوية، لقاء عقدٍ غير مكتوب قوامه الولاء المطلق والطاعة العمياء لزعاماتها. ومع ارتقاء الوعي الإنساني ونزوع الفطرة نحو الاستقرار، بزغ فجر الدولة الحديثة؛ تلك المؤسسة التي أُنيط بها دور "القبيلة الكبرى"، لتضطلع بمسؤوليات الأمن، والرفاه، وتأمين سبل الحياة الكريمة للفرد. غير أن الواقع في بعض ربوع عالمنا العربي يكشف عن مفارقةٍ لافتة؛ إذ لا تزال شرائح من المجتمعات تعيش مأسورةً في أطرٍ قبلية وأعرافٍ عتيقة، بات من العسير على الفرد الإنعتاق من قيودها أو الجهر بمخالفتها. وبينما تزخر هذه الموروثات بقيمٍ أصيلة، إلا أن طائفة منها غدت أعرافاً بالية، لا تمت بصلةٍ لجوهر الدين الحنيف. ففي هذا المحيط، يُصاغ وعي الفرد وتُشكل شخصيته وفق "قوالب العائلة" سعياً لتعزيز مكانتها، مما يغرق الفرد في سراب أمجادٍ غابرة، ويؤدي - في بعض الأحيان - إلى مصادرة حقوقه الفردية وإذابة كيانه في المجموع إرضاءً للنسق الاجتماعي موروث. لقد كانت القبيلة في أصل نشأتها صمام أمانٍ ودرعاً ضد الأعداء، لكنها استحالت بمرور الزمن - لدى البعض - إلى أداةٍ للاستعلاء والتفاخر، مُستحضرةً في ذلك ثقافة "التعير" التي نبذها الأدب العربي القديم، والحقُّ أن أوامر القربى يجب أن تقف عند حدود صلة الرحم التي كرسها ديننا الإسلامي؛ تلك الصلة التي لا تعني إلغاء استقلالية الفرد، بل تقوم على مبدأ إرادة الذات، والإيمان القائم على القناعات الراسخة التي تبتغي مرضاة الخالق، لا محاباة الآخرين. إن المتأمل في الخطاب القرآني يجد نداءه موجهاً دوماً إلى "الناس" - حيث يتكرر النداء في القرآن الكريم ب (يا أيها الناس) ، ذلك المفهوم الإنساني الشامل، متعالياً عن النداءات القبلية ، بل إن التعددية القبلية والشعبوية جعلها لا جل شأنه سبباً للتعارف والتعاون، لا للتناحر أو الانكفاء، مختتماً ذلك المبدأ بآيةٍ حاسمة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاتُكُمْ﴾، ليصرف الأنظار عن عصبية الجاهلية إلى معيار التقوى. وعلى هذا النهج القويم، سار رسولنا الكريم (صلى الله عليه وآله)، محققاً التوازن بين حفظ كرامة الفرد، وصون روابط العائلة بالمعروف. ختاماً... إن شخصية الفرد المؤمن تستوجب توازناً دقيقاً داخل دوائر انتماءاته المتعددة من الذات، إلى العائلة فالقبيلة ثم الوطن وصولاً إلى الأفق الإنساني الأرحب. على أن يكون هذا كله محاطاً ومتبلوراً في محراب الانتماء الأسمى عز وجل، حيث تتلاشى الذات في عظمة الخالق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ تَعَالَى﴾

